بسم الله الرحمن الرحيم

عن عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ رضي اللهُ عنه قَالَ: خَرَجَ صلى اللهُ عليه وسلم وَنَحنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ(واديان بالمدينة)فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ(الناقة العظيمة السمينة) فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِّ نُحِبُّ ذَلِكَ. قَالَ: أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ)).

ومن سور القرآن التي يكرَّرها كثير من المسلمين كبارا وصغارا، سورة النصر والتي تسمى أيضا سورة التوديع وسورة الفتح...

*هذه السورة هي من أواخر ما نزل من القرآن، فعن ابنِ عَبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما أَنَّهُ قَالَ لِعُبَيْدِ اللهِ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ عُتبَةَ: تَعْلَمُ آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ القُرآنِ، نَزَلَتْ جَمِيعًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ {إِذَا جاء نَصْرُ اللهِّ وَالْفَتْح} قَالَ: صَدَقْتَ.

*وعن ابنِ عَبَّاسٍ أيضاً قال: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِّ تَعَالَى:{إِذَا جاء نَصْرُ اللهِّ وَالْفَتْح}؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَّ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا!! فَقَالَ لِي: أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لَا. قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِّ صلى اللهُ عليه وسلم أَعْلَمَهُ لَهُ. قَالَ:{إِذَا جاء نَصْرُ اللهِّ وَالْفَتْح} وَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ **مِنْهَا** إِلَّا مَا تَقُولُ....

*وقالت السيدة عَائِشَةَ: مَا صَلَّى رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم صَلَاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ{إِذَا جاء نَصْرُ اللهِّ وَالْفَتْح} إِلَّا قال فِيهَا: سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهم اغفر لي)).

وفي رواية: كَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ)) بمعنى: الامتثال والعمل، امتثال ما أمره الله تبارك وتعالى به...

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ.....نَزَلَتْ مُنْصَرَفَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ خَيْبَرَ (أَيْ فِي سَنَةِ سَبْعٍ)، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ((بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ نَزَلَتْ {إذا جاءَ نَصْرُ اللَّهَ وَالْفَتْحُ} قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللهُ أَكْبَرُ جاءَ نَصْرُ اللَّهَ وَالْفَتْحُ وَجاءَ نَصْرُ أَهْلِ الْيَمَنِ. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهَ وَمَا أَهْلُ الْيَمَنِ؟ قَالَ: قَوْمٌ رَقِيقَةٌ قُلُوبُهُمْ، لَيِّنَةٌ طِبَاعُهُمْ، الْإِيمَانُ يَمَانٍ وَالْفِقْهُ يَمَانٍ وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ))، وَمَجِيءُ أَهْلِ الْيَمَنِ أَوَّلَ مَرَّةٍ هُوَ مَجِيءِ وَفْدِ الْأَشْعَرِيِّينَ عَامَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ.

*وَلَمْ يَخْتَلِفْ أَهْلُ التَّأْوِيلِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَتْحِ فِي الْآيَةِ هُوَ فَتْحُ مَكَّةَ، وَعَلَيْهِ فَالْفَتْحُ مُسْتَقْبَل وَدُخُولُ النَّاسِ فِي الدِّينِ أَفْوَاجًا مُسْتَقْبَلٌ أَيْضًا.

وَعَنْ قَتَادَةَ: نَزَلَتْ قَبْلَ وَفَاةِ الرَسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَنَتَيْنِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ...فَيَكُونُ الْفَتْحُ قَدْ حصل ودخل النَّاس فِي دينِ الله أَفْوَاجًا، وَهُوَ فِي سَنَةِ الْوُفُودِ سَنَةَ تِسْعٍ.

وعَنِ ابْنِ عمر أَنَّهَا نزلت أَوَاسِطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ (أَيْ عَامَ حِجَّةِ الْوَدَاعِ)....وَعنه أيضاً أَنَّ رَسُولَ اللَّهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاشَ بعد نُزُولِهَا نحوا من ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ.

وَعَدَدُ آيَاتِهَا ثَلَاثٌ وَهِيَ مُسَاوِيَةٌ لِسُورَةِ الْكَوْثَرِ فِي عَدَدِ الْآيَاتِ إِلَّا أَنَّهَا أَطْوَلُ مِنْ سُورَةِ الْكَوْثَرِ عِدَّةَ كَلِمَاتٍ، وَأَقْصَرُ مِنْ سُورَةِ الْعَصْرِ.

إذا جاء نصر الله والفتح: المراد بالنصر نصر الله لنبيه على قريش...قال ابن كثير: والمراد بالفتح فتح مكة قولًا واحدًا فإن أحياء العرب كانت تُلَوِّحُ بإسلامها فتح مكة يقولون: إن ظهر محمد على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا، فلم تمض سنتان حتى استوثقت جزيرة العرب إيمانًا ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام.

وكان فتح مكة في رمضان في السنة الثامنة من الهجرة، وبعد الفتح لم يقاتل صلى الله عليه وسلم إلا هوازن في غزوة حنين وكذلك أهل الطائف، ومن بعدها أتت وفود الجزيرة العربية تبايعه سَنَةَ تِسْعٍ فقد وفد عليه أكثر من سبعين وفداً.

ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا: الأفواج: جمع فوج، وهو الجماعة من الناس، لا أفرادًا متفرقين كما كان يحدث في السنين الأولى للدعوة....

إذا أتم الله عليك أيها الرسول الكريم وعلى أصحابك النصر، وصارت لكم الكلمة العليا على أعدائكم،

وفتح لكم مكة، وشاهدت الناس يدخلون فى دين الإسلام، جماعات ثم جماعات كثيرة بدون قتال يذكر. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا: قل: سبحان الله مع حمده، وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤذن بالتعجب مما يسَّره الله له مما لم يكن يخطر ببال أحد، وبين الحمد له على جميل صنعه له وعظيم مِنَّته عليه بهذه النعمة التي هي النصر والفتح لأم القرى، ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار.

والجمع بين هذا الذكر والدعاء من باب{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[الفاتحة: ٥]، وقد أمر صلى الله عليه وسلم بذلك:

١-ليكون كالطابع على عمله في آخر عمره: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس مجلسًا أو صلَّى، تَكلَّم بكلماتٍ، فسألتُه عن الكلمات، فقال: ((إن تكلم بخيرٍ كان طابعًا عليهنَّ إلى يوم القيامة، وإن تكلم بغير ذلك كان كفارةً له: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك)).

وعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن تَوَضَّأ ثم قال: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، كتب في رق ثم طبع بطابعٍ، فلم يكسر إلى يوم القيامة)).

٢-ليكون فيه تشبه بالملأ الأعلى، وما هو مُقبل عليه؛ قال تعالى:{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا }[غافر: ٧]

٣- ليكون فيه الازدياد من محبة الله تعالى؛ لقوله سبحانه :: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ}[البقرة: ٢٢٢]

٤-ليكون فيه تعليم لهذه الأمة، وإشارة إلى أن النصر لهذا الدين يستمر ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره؛ فقد قال سبحانه: { لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}[إبراهيم: ٧]، وقال سبحانه على لسان هود :{وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ}[هود: ٥٢].

٥-ليكون فيه تنبيه لهذه الأمة بأن الله تعالى جعل لها أمانين من عذابه؛ أحدهما: وجوده صلى الله عليه وسلم فيهم، والثاني: وجود الاستغفار؛ قال تعالى :﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[الأنفال: ٣٣]، فمجيء نصر الله والفتح كان مشعرًا بأن الأمان الأول قد ينقضي زمانه عن قريب، وأنه ينبغي للأمة المواظبةُ على الأمان الثاني، والاجتهاد فيه

وأكد لهم الأمر بذلك، بتوجيه الخطاب فيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم خاصة؛ لأن أمر الرئيس أدعى إلى امتثال أتباعه، وكل خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فهو خطابٌ لأمته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين